تصوف «العوام» خلال القرنين 17 و18م
التيار الشرقاوي نموذجا

أحمد الوارث
كلية الآداب ـــ الجديدة

نقصد بالتيار الشرقاوي أو الشرقاوية التيار الصوفي المنسوب لاسم مبدعه، الصوفي الشهير «سيدي بوعبيد الشرقي» شيخ زاوية أبي الجعد ومؤسّسُها، وأحد كبار أولياء مغرب أواخر القرن 10هـ/16م. وتكمن أهمية الشرقاوية في تميزها بخصائص انفردت بها أو كادت عن غيرها من التيارات الصوفية المغربية زمنئذ، بما فيها تلك التي تنتمي إلى الحقل الصوفي الجزولي، الذي تعد الشرقاوية عنصرا منه.

فالشيخ بوعبيد الشرقي جزولي السند والطريقة، غير أنه امتاز في جزوليته بسلوكات وشارات خاصة، حظيت لديه في الجزولية بالأهمية والأسبقية أكثر من غيرها، تلك المبادىء التي نجد لها صدى خلال القرن 11هـ/17م والمائة الموالية له، في مبادىء الطوائف التي انتسبت للشرقاوية، ونابت عنها في نشرها في المغرب لا بل في المشرق، لاسيما بعد أن أغلقت زاويتهم الأم في أبي الجعد أبوابها في الزمن الدلائي.

ويمكن أن نأخذ فكرة أولية عن مبادىء الشرقاوية تلك بمجرد أن نذكر اسم الطائفة الحمدوشية الشهيرة، وأسماء رفاقها في الطريقة اتباع الطائفة القاسمية، واتباع زاوية علي بن محمد الشاوي، وأسماء غيرهم.

ونظرا لارتباط الموضوع بالزمن المحدد ارتأيت الحديث في هذا التكريم العلمي عن «القاسمية» لاعتبارين اثنين، أولهما أنها تمثل التصوف الشرقاوي بأمانة، وثانيهما

لشعبيتها وذيوع مبادئها إلى حد أرقت الناصريين وأتعبتهم إلى درجة جعلتني مقتنعا بضرورة إعادة النظر في المقولة الشائعة التي تفيد سيادة التصوف الناصري خلال هذه الفترة، هذا رغم أن شيوخ هذه الطائفة لم يحظوا ــ حسب علمي ــ بالعناية لا قديما ولا حديثا، لأسباب ترتبط أساسا بطبيعة التصوف القاسمي الشرقاوي نفسه.

I ــ شيوخ الطريقة :

تنسب هذه الطريقة[1] للشيخ أبي القاسم بن أحمد بن عيسى بن عبد الكريم السفياني الشهير بابن للوشة، ويلقب عند مريديه وأصحابه وغيرهم بأبي عسرية لأنه كان يعمل بشماله[2]. وقد ازداد أبو القاسم بمضارب قبيلة سفيان على ضفة وادي ارضم أحد روافد بهت في ازغار ببلاد الغرب[3]. في أسرة فقيرة الحال ضيقة اليد ــ على ما يبدو ــ إذ كان والده سمانا، يطوف بالأسواق ليحصل على قوت عياله من بيعه للسمن[4]. وقد كان لهذا الفقر انعكاس على حياة ابنه أبي القاسم. وأهم ما انعكس فيه حياته التعليمية. فالمصادر التي ترجمت له لم تشر قط إلى تعلمه ولا إلى مستواه الثقافي، في وقت يفهم منها أنه كان يصاحب والده

---

(1) ورد نعتها بالطريقة عند :
ــ م. بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس...**، طبعة حجرية بفاس 1318-1900م، ج 2، 185-186.
ــ عباس بن إبراهيم المراكشي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الملكية بالرباط، 1974، ج 2، ص 372-373.

(2) ترجم له أكثر من واحد، وجاءت تراجمه دائما مختصرة، كما اختلف مترجموه في كتابة لقبه. فهو [**اللوشي**] عند : عبد الله الفاسي، **الاعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر**، تحقيق فاطمة نافع، رسالة مرقونة بخزانة كلية الآداب، بالرباط، ص 258] وهو [**اللوشة**] عند : م. الطيب القادري، **التقاط الدرر** تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 171، و[للوشة] في : سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 189.
و[**بلوشة**] عند : عبد الرحمن بن زيدان، **اتحاف أعلام الناس**، المطبعة الوطنية، الرباط، ج 4، 1350هـ/1932م، ص 55.

(3) م. بن الطيب القادري، التقاط... **مصدر سابق**، ص 171.

(4) م. بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 217-218.

في طوافه بالأسواق لبيع السمن[5]. فهل يعني هذا أنه كان أميا، كما تربى فقيرا ؟ مع تسليمنا بهذا الطرح فإن ذلك لا يمنع من اكتسابه بعض المعارف سماعا، مما كان ينصت إليه في المساجد والزوايا التي زارها مع والده، وهي أماكن مشرعة الأبواب لكل راغب في السماع والاستماع والتلقي، فقد ورد في ترجمته أنه حمل إلى زاوية أبي الجعد في صباه وتبرك بشيخها سيدي بوعبيد الشرقي[6]. وأنه لقي إبان طفولته بعض أولياء فاس، كما سنرى[7].

وهذا يعني أن صلته برجال التصوف سبقت لقاءه بعلماء الظاهر وألهته عنهم. ولعل تلك الصلة كانت نتاجا لمعتقدات أهله في أهل الله، لاسيما وأن والده بائع متجول محتاج للبركة والدعوات الصالحة. ومن الإشارات الدالة على هذا الارتباط صلة أبي القاسم المبكرة بالزوايا ما «يقال إنه حمل وهو صبي إلى الشيخ أبي عبيد الشرقي فبرك عليه ودعا بقراب من ماء فصبت عليه، وقال لولا أنا بردنا هذا الصبي لأحرقته الأنوار، ولذا كان يهتف كثيرا بأبي عبيد، وينادي باسمه، وينْسب جميع ما يظهر على يده له»[7].

وتأسيسا عليه، يبدو أن صلة والده بالزاوية الشرقاوية[8]. وزياراته لشيخها ــ ونفترض أنها كانت متكررة، بحكم مهنته ــ كانت وراء ارتباط ابنه أبي القاسم ــ منذ صباه ــ ودائما بشرقاوة، حتى إلى ما بعد وفاة شيخها الأول. وشاهد ذلك أن بعض المترجمين له ينسبونه في الأخذ عن سيدي بوعبيد الشرقي[9]، بينما

---

(5) **نفس المصدر**.

(6) أحمد الناصري، **الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى**، مطبعة الكتاب، البيضاء، ج 7، ص 108.

(7) **نفس المصدر**.

(8) حلاه في السلوة بوصف له قيمته في مجال التصوف، وهو : سيدي... أحمد [م. بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 217–218].

(9) م. بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، طبعة دار المغرب، الرباط، 1397هـ/1973م، ج 2، ص 161.
نفسه، **الاكليل والتاج في تذييل كفا به المحتاج**، دراسة وتحقيق مارية دادي، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص 522.

جعله البعض الثاني من أصحاب ابنه الغزواني[10]، وقال آخرون انه من مريدي عبد السلام الابن الثاني لبوعبيد الشرقي[11]... والمهم أنه من خريجي المدرسة الشرقاوية في التصوف، وأنه لازمها مدة ربما كانت طويلة. وأنه تخرج منها على مقاسها، «وليا كاملا، ذا أحوال ربانية ومواهب عرفانية، بهلولا، ملامتيا كثير الغيبة...»[12]، وبقدر ما تدل هذه الأوصاف على علو مقامه في عالم الولاية، فإنها تحدد بدقة التيار الذي يصنف ضمنه ابن للوشة وهو بكل بساطة تصوف «أهل الأحوال والغيبة» إلى حد البهللة وإثارة الملامة. وتلك أهم خصائص الشرقاوية. لا بل الظاهر أن ابن للوشة سار بعيدا في بهللته وملامته، عبر عنها القادري بقوله : «(كان) مولعا تصدر عنه مخالفات، ومما حكوا عنه أنه قتل نفسا»[13] وأنه لم يتزوج فلم يكن له عقب[14]. كما يظهر لي أن ابن للوشة صارت له الزعامة في الطريقة الشرقاوية، بعد نكبة الزاوية الأم، وصارت له بالتالي شعبية فائقة، وشاهد ذلك قيام «زوايا (تابعة له) في كل بلدة» من بلاد المغرب[15]، بما فيها فاس[16] إلى جانب «الزاوية الكبرى» التي أسسها ببلدته أحروش على وادي ارضم في ازغار ببلاد الغرب[17]، كما صار «أتباع وطوائف يؤكدون شد الرحلة لزيارته»[18]، دوما ومن كل حدب بقصد التبرك والانتفاع. الأمر الذي شجع ابن للوشة على نشر طريقته وبنجاح في الديار المشرقية، حيث

---

(10) محمد بن الطيب القادري، نشر...، **مصدر سابق**، ج 2، ص 161.

(11) عبد الله الفاسي، الاعلام بمن غبر... **مصدر سابق**، ص 258.

(12) **نشر المثاني**، ج 2، ص 161، **التقاط**، ص ص 170-171، **الاكليل والتاج**، ص 522، **الاعلام بمن غبر**، ص 258، **سلوة الأنفاس**، ج 2، ص ص 189-190، **اتحاف أعلام الناس**، ج 4، ص 55.

(13) م. بن الطيب القادري، التقاط... **مصدر سابق**، ص 171.

(14) **نفس المصدر**.

(15) م. بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 190.

(16) م. بن الطيب القادري، التقاط... **مصدر سابق**، ص 171، عباس بن إبراهيم، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 363-364.

(17) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 189-190.

(18) محمد بن الطيب القادري، التقاط... **مصدر سابق**، ص 171، نفسه، نشر... **مصدر سابق**، ج 2، ص 161.

اشتهرت هنالك باسم الشاذلية[19]. ومع ذلك ــ وعلى غرار اتباع سيدي بوعبيد الشرقي وأبنائه ــ غابت تراجم أتباع ابن للوشة من الكتب المختصة بما فيها ما كتبه شرقاوة أنفسُهم بعد إعادة فتح زاوية أبي الجعد، وعلى رأسها «المرقي في مناقب سي مَحمد الشرقي»، و«يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي»، و«الروض اليانع الفائح في مناقب أبي عبد الله المدعو الصالح». وإذا علمنا أن هذه التراجم دونت أيام انتماء شرقاوةِ أبي الجعد للناصرية علمنا لماذا غاب ابن للوشة من صفحاتها، ولهذا كله أيضا لا نعجب إذا اختلفت الآراء حتى في تحديد تاريخ وفاته[20].

---

(19) يذكر في هذا الصدد أنه : «.. أخذ برأس أحمد السوسي ورأس علي بن عزوز المكناسي نزيل زوار من تونس وقارن بينهما، وقال هذه الزوجة أردت أن أحرث بها وأشار نحو المشرق» ثم أمر «... لمة من الفقراء أن يذهبوا للمشرق، فذهبوا وجاور أحمد السوسي وعلي بن عزوز ثم استقر بهما الرحل بتونس، فتصدر هنالك علي بن عزوز وشاعت بركاته وكثر زائره ورفع الراية لتربية المردين...» إلى أن توفي بينما عاد رفيقه السوسي إلى المغرب ليخلف شيخه على رأس الطريقة القاسمية. [عباس بن إبراهيم، **الاعلام**...، ج 2، ص 364].
أما أكثر أتباع ابن للوشة شهرة في المشرق هو «... الشيخ الإمام العارف بالله المسلك المرشد القطب الأستاذ الكامل الصوفي الرباني شيخ الطائفة محمد بن أحمد المزطاري المكناسي [ابن زيدان، **اتحاف**... ج 4، ص 55–56، حسن صادقي، **تراجم مغربية دفينة في العصر الوسيط والحديث**، رسالة جامعية مرقونة بخزانة كلية الآداب، الرباط، ج 2، ص 406–407، نقلا عن سلك الدرر، 4، 53] «... فقد قدم دمشق في غرة جماد الأولى سنة 1096هـ، وأخذ عنه بها الطريق محمد بن خليل العجلوني، وكتب له بذلك إجازة مطولة. وكان يقول له، جئت من المغرب لأعمر ديارك، وأخذ أيضا عنه الشيخ عبد الرزاق بن عبد الرحمن السفرجلاني، ومن ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر اتباعها والآخذون لها... ثم رحل من دمشق إلى مكة، وتوفي بها في محرم الحرام ليلة الجمعة سنة 1107هـ عن ثلاث وستين عاما ودفن بباب المعلى بقرب ضريح السيدة خديجة الكبرى... وكان تولى القطبانية خمسة وعشرين عاما...» [حسن صادقي، تراجم... **مرجع سابق**، ج 2، ص 406–407 نقلا عن سلك الدرر، 33/4].

(20) أرخ القادري وفاته سنة 1075هـ في الزهر الباسم، وأرخها في التقاط الدرر والنشر بيوم 28 رجب 1077هـ [**التقاط** 170، نشر، 2 : 161] وتبعه على ذلك صاحب **سلوة الأنفاس** (1 : 189) أما الناصري فقد اعتبر ذلك تصحيفا وصحح تاريخ وفاته، مؤرخا لها بسنة 1097هـ (**الاستقصا**، 7 : 105، 108)، ويبدو لي أن الناصري اعتمد في تصحيحه على أخبار سلوة الأنفاس، دون أن ينتبه ان الكتاني إنما ترجم لابن للوشة عرضا بمناسبة حديثه عن تلميذه منصور بوحفرة، وأن التاريخ الوارد في نهاية الترجمة وهو 1096هـ هو للتلميذ=

لكن ذلك لا يقلل أبدا من شعبية ابن للوشة لدى فئات عريضة من المغاربة وحسبنا هذا التنافس الذي جرى عقب وفاته حول جثمانه. فقد توفي بأحروش ودفن به أولا... ثم نقل خفية إلى وادي ارضم ودفن هناك وبنيت عليه قبة عظيمة، وقبره ــ يقول صاحب السلوة ــ بها إلى الآن مزارة عظيمة وله موسم عظيم في كل سنة تفد إليه الوفود والركاب من كل ناحية، وبنيت على قبره بأحروش قبة أخرى يزار بها كذلك[21]. وحسبنا أيضا أن الذي خلفهُ على رأس الطريقة والطائفة كان مراكشيا، ويقيم في تونس.

وهذا الخليفة هو أبو العباس أحمد بن علي المداسي السوسي لقبا المراكشي دارا، الشهير باسم أحمد السوسي. ولد بمراكش في حدود الخمسين وألف، وتربى يتيما فقيرا كما يبدو[22]. «يعاني بعض الصّنّائع»[23]، أميا مثل شيخه «لم يمارس شيئا من علم الظاهر قط»[24]. فلما تاقت همته للانخراط في طريق القوم اختطر ابن للوشة. ومرد هذا الاختيار في اعتقادنا يتمثل أولا في اتساع نطاق جماهير ابن للوشة إن لم نقل اتساع نطاق نوع التصوف الذي بنيت عليه طريقته، ثم موافقة هذا النوع من التصوف لقدراته المعرفية، وحاجاته «كصانع» كادح.

والا فقد ظهر بالمغرب زمنئذ ــ أعني في العقد السابع ــ شيوخ كبار، أمثال محمد بن ناصر الذي تصدر المشيخة منذ 1052هـ (ت عام 1085م) ومولاي عبد الله الشريف الوزاني الذي نزل بوزان حوالي نفس التاريخ. والشاهد على

= لا للشيخ، فلعله وقع في هذا الوهم، ثم قرأ التاريخ 1096 بدل 1097 سهوا، وذلك كله لا علاقة له بابن للوشة، (راجع : **سلوة**، 1 : 190).
ونحن نرجح 1077هـ كتاريخ لوفاته، كما أشار إلى ذلك القادري ويؤكد ذلك عودة تلميذه أحمد السوسي من تونس إلى المغرب بقصد التصدر للمشيخة في الطريقة وذلك في «عشرة الثمانين» [**الاعلام** للمراكشي، ج 2، ص 364] وذلك أمر لا يمكن حدوثه إلا بعد وفاة شيخه.

(21) م. بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 189–190.

(22) جاء في الاعلام للمراكشي «ولد في حدود 1050هـ وسافر به جده للحجاز، فحج به وهو صبي ثم قفل به للمغرب» [ج 2، ص 363].

(23) **نفس المصدر**.

(24) **نفسه**، 365، بينما انفرد القادري بتحليته بـ«العلامة» في ترجمته ابنه أحمد العباس [نشر، 4 : 80] ولعل هو سبق قلم.

حضور الاختيار النص الوارد في ترجمته، مؤداه : لما تاقت همته للسلوك على يد شيخ يصفيه من رعونات نفسه، ويرقيه عن أطوار حسه تجول في بلاد المغرب يلتمس شيخا تجتمع عليه همته ويسلم له باطنه فطاف على المنتسبين للمشيخة، واعمل الرحلة للمنتسبين بالتصوف بأرجاء المغرب كله، فلم يجد عند أحد منهم ضالته المنشودة وأمنيته المقصودة إلى أن أدته خاتمة المطاف للشيخ أبي القاسم بن للوشة السفياني، فقصده ولبث عنده أياما، فرجع إلى فاس [مما يعني أنه مر عليها قبلئذ] واستقر بجامع منها وشمر للعبادة ذيله وعمر بالطاعة أوقاته، فكان على ذلك مدة، إلى أن قيض الله له بعض أهل البصائر، فكان يتعاهده ويفاوضه في مسائل الطريق، فذكر له أنه يبحث عن شيخ كامل في الوقت يتجه إليه بكليته، ويداوي به غصال عيوب نفسه، فلم يجده، فقال له ان هذا في الوقت لموجود على وفق ما قصدته وهو أبو القاسم بن للوشة، فقال قد جئت من عنده، فما رأيت شيئا، فقال له لو رأيت أصحابه وما هم عليه من المحبة والاجتهاد في العبادة لظهر لك مصداق ما أشرت به عليك، فصار به إلى رابطتهم التي يجتمعون فيها، فعاين من أحوالهم عجبا عجابا، ورأى عليهم من العناية جلبابا. وبقرب ذلك ذهبوا لزيارة شيخهم، فسار معهم، فلما أقبلوا على الشيخ قال لهم من بينهم مرحبا بالسوسي فطعن في قلبه، وأخذ منه بسويداء لبه ووجه إليه الشيخ همته، فاستنار باطنه واستقام أوده وتمكنت محبة الشيخ منه بحيث صار أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، فجلس بزاوية شيخه يسقي الماء للزائرين ويطبخ لهم»[25].

ويؤكد هذا النص شهرة ابن للوشة في مغرب القرن 11هـ-17م، كما يؤكد على أن تصوفه استهوى كثيرا من المغاربة، أكانوا في فاس أو مراكش أو في بادية هاته وتلك.

وعلى كل حال، يبدو أن أحمد السوسي قد بلغ مقاما عاليا في زاوية شيخه، مما جعل هذا الأخير يعول عليه صحبة رفيق له في نشر طريقته بالمشرق[26] قبل أن يرشح لخلافة ابن للوشة نفسِه في التصدر لمشيخة الطريقة وتربية مريديها في المغرب، وهو الأمر الذي فرض عليه العودة من تونس في «عشرة الثمانين» من

(25) عباس بن إبراهيم، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 363-364.
(26) **نفس المصدر**، وراجع الهامش (19).

المائة المذكورة[27]. واختار النزول بمراكش. وفي عاصمة الجنوب «... انثال الناس لزيارته وقصدوه من كل جهة، وطار له بها طائر الاشتهار، فتلمذ له قوم ونفع الله به... (وصارت) زاويته بمراكش أكثر زوايا المغرب اطعاما للصادر والوارد...»[28] إلى أن توفي عام 1130هـ، «ودفن قريبا من ضريح الشيخ الجزولي وبنيت عليه قبة هائلة لم ير مثلها»[29].

وقد خلفه على رأس الزاوية والطريقة القاسمية[30]، ابنُه وسميُّه أحمد المدعو العباس السوسي المراكشي. وعلى غرار والده غابت آثار العلم الظاهر من مناقبه، كترجمة ولاشك لعدم اهتمامه به[31] باعتباره في نظر شيوخ الطريق علما دنيويا غير نافع، في حين يوصف بالزهد والورع والعرفان والأحوال الربانية وهذه هي أهم «المواد» التي تعلمها بمدرسة والده، القاسمية الشرقاوية، سندا وأصولا، وذلك أيضا ما أهله لرئاسة «المدرسة» نفسها والتصدر للمشيخة[32].

---

(27) جاء في الاعلام بمناسبة حديثه عن محاولة ابن للوشة نشر طريقته في المشرق، ان أحمد السوسي أقام في تونس محبة رفيقه في الطريقة علي بن عزوز «... إلى أن أذن له في التصدر للمشيخة ورفع الراية لتربية المريدين، فخرج من تونس بعد أن أتاه جماعة من أرباب القلوب وأصحاب البصائر وأمروه بالتوجه إلى مراكش وأخبروه أن بها يكمل أمره وهددوه إن لم يفعل، فقدم مراكش في عشرة الثمانين» من القرن 12هـ/18م [ع. بن إبراهيم المراكشي، **الاعلام**، ج 2، ص 364].

(28) عباس بن ابراهيم، **الاعلام**، ج 2، **مصدر سابق**، ص 364-365.

(29) **نفس المصدر**، ص 365.

(30) ظلت التسمية واردة في تراجم أحمد السوسي وابنه أحمد العباس [راجع : عباس بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 373] ولم نقرأ مثلا الطريقة السوسية، بينما سمى أتباعهما بالسيوسيين أحيانا وبالقاسميين أحيانا أخرى [**الاعلام**، 2 : 372].

(31) يفهم مما خصه به صاحب الاعلام من أخبار أنه كان يعرف الكتابة والقراءة على الأقل، بمعنى أنه لم يكن أميا. [**الاعلام**، ج 2، ص 374].

(32) عباس بن إبراهيم، **الاعلام**، ج 2، ص 370-371، وقد روى في هذا الصدد عن والده أيضا أنه مع أميته كان آية من آيات الله في الفهم والعرفان وروى «كرامة» شهادة على ذلك مفادها، «ان نفرا من الطلبة قصدوه برسم اختباره في مسائل عملية فكلما سألوه عن مسألة أجاب عنها بأحسن جواب فعجبوا منه، مع أنه لم يمارس شيئا من علم الظاهر قط. فقال لهم والله ما جلستم بين يدي حتى وقف أبو قاسم على رأسي. فكل مسألة ألقيتموها علي لقنني جوابها» (**الاعلام**، ج 2، ص 365) وهذا اطراء واضح القصد منه اظهار تفوق «العرفان» وامتياز أصحابه على شيوخ الرسوم المنكبين على العلوم الدنيوية.

هذا ما جمعناه من إشارات تتعلق بحياة شيوخ الطريقة القاسمية معظمها نقله كتاب التراجم مما كتبه صديق شرقاوة والقاسميين الحميم المؤرخ الشهير محمد الصغير الوفراني. وإذا كنا لا نعلم من خلف أحمد العباس في منصبه بعد وفاته سنة 1151هـ، يفهم من إشارات كثيرة ان شيخ الطرب الملحون بمراكش في عصره الشيخ أحمد بن علال الشرابلي المتوفى سنة 1200هـ/1786م كان له التقدم على غيره من اتباع القاسمية.

وبعد، ماذا نستفيد من هذه التراجم ؟

II ــ القاسمية بين «الهمة» و«التربية» :

إن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد أن لشيوخ الطريقة سندا، وهذا يفيد في القول بأنها سلوكية أو قل تربوية، وإن لها في التربية مرجعية، على غرار الطرق الشهيرة. وأول ما يثير الانتباه في هذا الصدد أن سند الطريقة «فقيرٌ» كفقر أصحابه ماديا، وحيد السهم، بحيث يتنفى منذ التعدد المألوف والمفتخر به لدى مشايخ الطرق الصوفية المغربية، فأحمد العباس ــ مثلا ــ سلك الطريق على يد والده، وهو عن أبي القاسم بن للوشة عن شيوخ أبي الجعد بسندهم إلى الإمام الجزولي. هذا رغم شهرتهم جميعا بالسياحة الصوفية في المغرب والمشرق. وعندما رغبوا في لقاء بعضهم ــ سواء في بداية أمرهم أو لما كمل حالهم ــ نجد يَلَقَوْن شخصياتٍ صوفيةً، أهم ما يميز صلاحها انتماؤها إلى طينة لها ما يربطها بالنهج القاسمي ــ الشرقاوي، ونعني بهم المجاذيب والبهاليل، ولو كانوا مطبقين، توكيدا منهم ــ ولاشك ــ على رفعة وعلو مقام هذا الصنف من الأولياء وسلوكهم، اقتداء بروح الشرقاوية وموقف مؤسسها، الذي اشتهرت مدرسته منذ القرن 16/10م بتخريج الأولياء المجاذيب(33).

ومما نمثل به على هذا الارتباط بالجذب وأهله ما يروى عن ابن للوشة نفسِه عندما صحب مرة والده إلى فاس في صباه. فبينما هما يطوفان بالأسواق لقيا أبا محمد سيدي يدير بن محمد السوسي، وكان من المجاذيب أهل الغيبة السائحين...

(33) أحمد بوكاري، **الزاوية الشرقاوية**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1985م، ج 1، ص 153.

«وهو يقول : من يشتري مني الغرب بخُبْزَة، فقال الولد سيدي قاسم لوالده سيدي أحمد : يا أبت اشتر لي خبزة أعطيها لهذا المرابط. فاشتراها له وأعطاها لسيدي يدير، فأخذها منه، وقال له : اشتريت مني، فقال سيدي قاسم : اشتريت منك، فقال سيدي يدير : وأنا بعت لك والله الموفق والمسخر لك سبحانه. ولما كبر سيدي قاسم وبلغ الحلم ظهر فيه ما لا يخفى ولا ينكر ولا يحد»[34].

ويذكر عن أحمد العباس بن أحمد السوسي من جهته في هذا الصدد أنه «لقي العلامة الولي الصالح القطب الواضح سي المعطي بن الصالح مؤلف الذخيرة وزاره، ولما رجع من عنده من تلك الزيارة لقيه الفقيه العالم سيدي الصغير الوفراني المراكشي. فظهر لسيدي الصغير في سيدي أحمد العباس الزايد، فقال له من أين لك هذا ؟ فقال له من الشيخ المعطي. فقال سيدي الصغير علينا بزيارته فرحل رحمه الله إليه»[35].

وإذا علمنا أن الشيخ المعطي الشرقاوي تراجع عن الناصرية إلى طريقة جده بوعبيد الشرقي[36] أدركنا سر زيارة أحمد العباس له، وعلمنا بالتالي سبب «الزايد» الذي بدا للوفراني على صديقه أحمد العباس لما عاد من أبي الجعد، والشرقاوية الأم كما علمنا أم القاسمية، وفي لقاء أحمد العباس وصاحب الذخيرة تجديد، «للعهد» القديم، وربما فرح بهذا التجديد.

ومن مظاهر هذا الارتباط أيضا حضور أسلوب «التربية بالهمة» في سلوك مريدي الطريق[37]. ومعلوم أن هذا الأسلوب من خصائص تصوف المجاذيب، مما يعني أن القاسمية لم تفرق بين شيخ التربية وشيخ الهمة في التوصيل إلى الله[38] عكس كثير من الطرق المعاصرة لها، وخصوصا الوزانية والناصرية والفاسية.

---

(34) م. بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق،** ج 1، ص 217-218.

(35) ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق،** ج 2، ص 377.

(36) راجع : أحمد بوكاري، الزاوية... **مرجع سابق،** ج 1، ص 132-133.

(37) راجع : ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق،** ج 2، ص 364.

(38) راجع رأيا مماثلا للشيخ علي بن عبد الرحمن الدرعي التادلي أبداه كرد على انتقاد أتباع محمد ابن عبد القادر الفاسي لأسلوبه التربوي.
— محمد بن علي المنالي، **دوحة البستان في مناقب الشيخ علي بن عبد الرحمن،** م.خ.ح، الرباط، رقم 2339، ص 42أ.

ونستدرك بسرعة لنقول بأن القاسميين ورغم علاقتهم الشديدة بالمجاذيب، وحضور عنصر التربية بالهمة في علاقتهم بمريديهم، جعلوا من الصحبة عمدة الطريقة وعليها اتكلوا في التوصيل إلى الله. ومن ثم، لاحظنا أنهم لم يكونوا مجاذيب مطبقين(39)، بقدر ما كانوا صوفية سالكين مربين ينشدون ــ كغيرهم ــ الجذب الالهي والقرب منه والفناء فيه، بقطع منازل الطريق ومقاماتها كما هو معهود لدى سائر أهل الله السالكين، ولذلك أيضا اشترطت طريقتهم في شيخ التربية أن يكون «شيخا كاملا» كما اشترطت على المريد «أن يتوجه إلى شيخه بكليته»(40). وفي هاتين الإشارتين تلخيص لكل تفاصيل علاقة الشيخ بالمريد

---

(39) مما يروى في هذا الصدد «أن الشيخ الفقير السالك المجذوب خديم الفقراء السالكين والمجاذيب ورفيقهم سيدي الحاج محمد غازي المدعو عزيزي القنيت الدباغ حرفة، كان رحمه الله يتبع المجاذيب والبهلاء ويشرب معهم الخمر والدخان ويأكل الحشيش ولا يبالي بشيء من ذلك من أحد... وكان له أخ اسمه سيدي محمد، من أصحاب أحمد السوسي وكان يتألم من حال أخيه القنيت. ولما جاء سيدي أحمد العباس من الحج، وخرج يوما مع الفقراء لزيارة سي أبي جيدة رضي الله عنه خارج باب المسافرين ورجع من الزيارة لقي القنيت هابطا بطنجيته على كتفه ودواة الدخان على فمه، فقال سيدي عبد المجيد الزبادي لسيد أحمد العباس هذا هو القنيت أخو سيدي محمد غازي، فحصروه (...) فقبضوه كلهم وقالوا ارم عنك هذه دواة الدخان، وهو يقول أنا لا أقدر على تركها أو رميها، وإذا أردتم تركها، اتركوها أنتم عني، فقالوا أردنا تتبع سيرة أخيك وتتركها، فرفع سيدي أحمد العباس يده بالفاتحة، فقرءوها ودعوا له وأمروه بالحج واتفقوا على ذلك، وكان هو سبب الخير له».
راجع : م. بن جعفر الكتاني، **سلوة... مصدر سابق**، ج 1، ص 374.
ــ ع. بن إبراهيم المراكشي، **الاعلام... مصدر سابق**، ج 2، ص 373-374.

(40) راجع : ع. بن إبراهيم المراكشي، **الاعلام... مصدر سابق**. ويبدو من خلال تراجم القاسميين وأوصافهم «كمال مشيختهم» انسجاما مع آرائهم، مثل «الشيخ»، «الشيخ المربي»، «الأستاذ المرشد»، «الصوفي الكامل» «السالك المجذوب» «الامام العارف بالله» «الصوفي المحقق» «القطب»، وغيرها.
راجع مثلا : ــ م. جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 373-374، ج 2، ص 184، ج 3، ص 252.
ــ ع. الرحمن بن زيدان، اتحاف... **مصدر سابق**، ج 4، ص 55-56، ج 5، ص 313.
ــ ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام.. **مصدر سابق**، ج 2، ص 365، 373-374.
ــ حسن الصادقي، تراجم مغربية... **مصدر سابق**، ج 2، ص 406-407.
ــ سليمان الحوات، **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**، دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني، رسالة جامعية مرقونة، بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص 391-392.

السّالك في الشاذلية التي ينتسب القاسميون إلى فرعها الجزولي ــ كما علمنا ــ لا، بل لقد بلغ الارتباط في هذه الطريقة بين الشيوخ ومريديهم مستوى عاليا، عبروا عنه عادة بـ«المحبة»[41]، وهو مصطلح ارتبط كثيرا بالطوائف التي تشاكل القاسمية في نحلتها مثل العيساوية، حتى لقد اختصت به هذه الأخيرة فقيل «المحبة عيساوية».

وتأسيسا عليه، تكون الطريقة القاسمية طريقة تربوية لها سند عال في طريق القوم، لكنها جنحت في سلوكها إلى الارتباط بأهل الأحوال والمجاذيب، إن لم نقل إنها حاولت تحصيل أحوالهم عبر السلوك وبأقصر الطرق.

ومن ثم اصطنع القاسميون ــ وهم يقلدون في ذلك ــ شيوخ أبي الجعد في سلوكهم للطريق مجاهدات وتبنوا تعاليم تنسجم وتكوينهم وكذا مطامحهم أسسها الجذب. وقد حاولنا جاهدين إبراز نوع تلك المجاهدات وخصائصها من خضم التعتيم الذي خيم على نشاطهم إلى حد التغييب وهو أمر نخاله مقصودا.

وأول إشارة جادة صادفناها في هذا المجال، ما مدح به أحد القاسميين الفاسيين إخوانه في الطائفة، وهو يحاول اقناع أحمد السوسي كي ينظم إليهم، حيث يقول : «لو رأيتهم وما هم عليه من المحبة والاجتهاد في العبادة لظهر لك مصداق ما أشرت به عليك»[42].

فأي عبادة ؟ إذا كان المقصود عبادة عامة فالأكيد أن القاسميين وإن لم يكونوا فقهاء فإنهم لم يسقطوا عنهم التكاليف الشرعية ولا فرطوا في السنن وما يتبعها من نوافل[43]، رغم ما اشتهروا به من جذب وبهللة كما علمنا، فهم من النوع

---

(41) راجع : ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 364.

(42) **نفس المصدر**، ج 2، ص 364.

(43) مما اشتهر به شيوخ القاسمية وأتباعهم حرصهم على أداء فريضة الحج.
راجع : ــ سليمان الحوات، الروضة... **مصدر سابق**، ص 391-392.
ــ ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 363-371.
كما عرف عنهم أداؤهم للتكاليف الدينية جميعا.
راجع : ــ سليمان الحوات، الروضة... **مصدر سابق**، ص 391.
ــ م. بن جعفر الكتاني، سلوة، **مصدر سابق**، ج 1، ص 373-374، ج 2، ص 24، 185، 252، 373، 374.
ــ ع. بن زيدان، اتحاف، **مصدر سابق**، ج 3، ص 81. =

«الراجع» في الجذب. لذا فالأكيد أيضا أن المقصود في النص بـ«المحبة والاجتهاد في العبادة» يتعلق بوصف مجلس معين وعبادة خاصة بانَ اجتهادهم فيها كما بانت محبتهم. وقد ساعدنا القادري على تأكيد هذا الفهم بجملة قصيرة انما بليغة نصها «كان للأصحاب [ابن للوشة] اجتماع على الذكر والسماع»(44).

فالذكر والسماع إذن هو قطب رحى «عبادتهم» وفيه ظهر اجتهادهم. وكان الاجتماع بالزاوية، وفي الليل لاشك في ذلك، على غرار غيرهم من أهل الله. بعد صلاة العشاء، وما يتبعها من شعائر كصلاة النوافل وقراءة بعض من القرآن. وقد تمثلت مادة الذكر القاسمي في الهيللة بالجلالة، والتصلية، ثم اشعار الششتري، ورباعيات عبد الرحمن المجذوب، وكلام لسيدي بوعبيد الشرقي(45).

ويلاحظ من خلال هذه المواد أنها تجمع بين اذكارٍ مجردة مألوفة وأشعارٍ استعملتها طوائف، واتخذت منها أخرى مواقف مضادة. وان القاسمين من الصنف الذي جمع بينهما، لا بل لقد جعلوا من تلك الأشعار محور مجلسهم وخلالها يحمى وطيس حضرتهم. نريد القول بأن الذكر بالهيللة والتصلية لم يكن سوى مقدمة للسماع. وأن السماع بالأشعار الصوفية الجارية ألحانها على مقتضى الطبوع كان ديدن القاسميين، حتى انهم اختاروها اختيارا وصاحبوا إنشادهم لها بالضرب في الآلات(46) وإذا كنا لا نعلم نوعية تلك الآلات فلاشك أنها كانت «عيساوية» للتقارب الحاصل بين الطائفتين منهجا وسلوكا، واندماجهما في احياء كثير من مجالس «الحضرة».

والقصد من السماع وتحويل مجلس الذكر إلى حضرة واستعمال الآلات، يدخل في إطار منهج صوفي يرى في ذلك كله سبيلا للجذب أعني ربط الصلة بالخالق عبر استدعاء الأحوال بسماع الصوت الحسن وذكر الله والرسول، وكذا

= — ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام، **مصدر سابق**، ج 2، ص 364، 372، 373.
— حسن صادقي، تراجم مغربية، **مرجع سابق**، ج 2، ص 406–407.

(44) م. بن الطيب القادري، التقاط، **مصدر سابق**، ص 171.

(45) هكذا جرت العادة أيام أحمد السوسي، راجع : ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام، **مصدر سابق**، ج 2، ص 371.

(46) سليمان الحوات، الروضة المقصودة... **مصدر سابق**، ص 491.

توفير الأجواء الملائمة لسلخ الروح عن عالم الدنيا ومتاعبه ومشاكله... والارتقاء إلى «السماء» بكل ما فيها من صفاء وأحلام وراحة بال...

ولذلك امتازت الحضرة القاسمية ــ كلما حمى وطيس السماع ــ بغلبة الأحوال على كثير منهم، فيقومون للرقص طربا بتوارد تلك الأحوال ويهيجون فرحا بها...[47].

والجدير بالإشارة ان القاسميين وادراكا منهم للخلاف الحاصل حول مسألة السماع، وتوابعه، حرصوا في سماعهم بالشعر أو بالرجز أن يكون ربانيا أو مجرد مدح للرسول «وإذا سمِع [أحدهم] شيئا من كلام المجون الذي في الأغراض الفاسدة به يأتون، عارضه بقوة»[48]، كما اعتبروا ما يحصل للمسمع من هز ورقص ودوران وما أشبه ذلك سرا من الأسرار الإلهية لا يخص بها إلا من ابتغاه ربُّه، بمعنى أن رقصَهم هو من باب الوجد الهاجم لا التواجد المتكلف. ومن ثم فهم صادقون في وجدهم[49].

وسواء صدقوا في أحوالهم أو لم يصدقوا. فالأكيد أن السماع وما فيه من الجذبات والشطحات والأحوال... لدى القاسميين هو مبنى الطريقة وعليه معتمدها، كما نادى سيدي بوعبيد الشرقي بذلك وأوصى[50]. وتكمن أهميته في كونه ينسجم انسجاما تاما مع منهج الطريقة التي تنشد «الجذب» و«الغيبة»... كما ينسجم مع طبيعة حياتهم، وعملهم.. ولذلك سار القاسميون في هذا الشأن على نهج السلف المقتدى به من لدنهم، واجتهدوا في صياغة «كلام» يلبي تلك

---

(47) م. بن الطيب القادري، التقاط... **مصدر سابق**، ص 232.
ــ سليمان الحوات، الروضة... **مصدر سابق**، ص 391، 413، 491، 492.
ــ م. بن جعفر الكتاني سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 189–374، ج 2، ص 6–7، 189.
ــ ع. بن زيدان اتحاف... **مصدر سابق**، ج 5، ص 313.
ــ ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 371، ج 7، ص 266.
(48) سليمان الحوات، الروضة... **مصدر سابق**، ص 491.
(49) **نفس المصدر**، ص 391، 491، 492.
(50) أحمد بوكاري، الزاوية... **مرجع سابق**، ج 1، ص 123.

الحاجات الدينية والدنيوية أثناء الشغل وفي غياهب الوحدانية في ظلمات الليل والزمن...

وكان من الطبيعي أن يكون «الكلام» الذي صاغوه على مقاسهم عكس الشيوخ الذين تنافسوا في تركيب ما يدعى بالحزب، انسجاما مع طبيعة طرقهم. فأي كلام نقصد ؟ ذلك ما نجد صدى له في قول مأثور من شيخ الطريقة الثاني أحمد السوسي، آنس به نفسه لما خلا بها عن الناس، في طريقه إلى الديّار المقدسة، مؤداه :

قولوا لمكا الزينا مع المدينا خيرهم بان علينا يا بابا
من بغا يزور يجينا يطلب لنا الوقت راهو لنا يا بابا[51]

وقد قلد في رباعيته هاته شيخِه «الكاهل» بوعبيد الشرقي وأبناءه، الذين يعدون من كبار ناظمي الرباعيات على شاكلة ما نظمه أقطاب الفن الصوفي قديما[52]. أما أشهر «القاسميين» براعة في هذا المجال هو الشيخ الشهير أحمد بن علال الشرابلي المراكشي.

فقد عرف الشرابلي بتعصبه الشديد للنهج القاسمي في التصوف «... غريقا في بحر التوحيد» تعتريه الأحوال... ويهيج بسماع الألحان الجارية على مقتضى الطبوع من الاستهلال والزيدان، يضرب في الآلات ويرقص طربا بتوارد الحالات...»[53].

كما اشتهر بإبداعاته في النظم ولاسيما في فن الملحون أكثر الأجناس الزجلية موسيقى، إذ يذكر أنه «كتب ديوانا بالملحون بين توسلات ومقامات ما للساحلي في منازل السائرين وأدعية وأحوال الصالحين»[54] من أشهرها الموشح الشهير بعنوانه : «صلى الله على الهاشمي البحر طه...» والتي مطلعها :

---

(51) ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 400.
(52) أحمد بوكاري، الزاوية... **مرجع سابق**، ج 1، ص 99.
(53) سليمان الحوات، الروضة... **مصدر سابق**، ص 491.
(54) **نفس المصدر**، ص 492.
— ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 398.

• بسم الله حلا بنداها، فسلوك الذهبان والجواهر تشرق
بجمالو، والدر الوهاج
• بمديح المختار راحتي وروحي ومناها، ديني مذهبي ملتي
خالص نهديها لو، فداخل المهاج
• صلى الله عليه ما نشرت ضياها، وما غسق الليل وانفاجا
بعد الفجر كحالو، وكواكب الأبراج
• عين الرحما كامل السنا زهو وانزاها، ونعيم سلوان، صار
مدح للقلب اشغال غاية كل اعلاج
• عين اليقين الحائق رفع عظاها، وتوضحت مسالك الشريعة
من فضل كالو وسبل المنهاج
• وانصر دين الله لامتو وانتشرت سناها، ونفا نهج الشرك
فلغياهب خافض فضلا لو، هو الدين المعواج
• يا رسول الحق صرختك دايم نرجاها، ما تخفى لك حالتي،
أوراقي في الغصن دبالو، بادر بالفرج
• ... صلى اللّه على الهاشمي البحر طه، من لا خلق في
الارض بحالو، أحمد مولى التاج[55]

ويبدو أن القاسميين وجدوا في ملحونات الشرابلي ضالتهم، فعكفوا على السماع بها، وشاهد ذلك ما رواه سليمان الحوات في قوله : «كان له أتباع وأصحاب من أهل المحبة والاقتراب يحفظون كلامه ويتواجدون به كل الوجدان ويرقصون لسماعه»[56] ثم صارت «المدائح في الأسواق تمدح بكلامه فتتواجد له العشاق»[57] ولما توفي خلدوا ذكرى رحيله بعمل موسم بمقامه الواقع بقعر الدرب المسمى به بالقصور في مراكش ينشدون فيه أزجاله وملحوناته

---

(55) انظر الموشح كاملا عند :
ـــ سليمان الحوات، الروضة المقصودة... **مصدر سابق**، ص 492.
ـــ ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 399.
(56) سليمان الحوات، الروضة... **مصدر سابق**، ص 492.
(57) **نفس المصدر**.

الشهيرة[58] مثل ما يفعلون في موسم شيخ الطريقة ابن للوشة في احروش[59]. كما يذكر أيضا أن أحد رفاق الشرابلي في الطريق، وهو الشيخ غازي القنيت المتوفى عام 1196هـ بفاس «أوصى أن تكون جنازته بالقراءة والذكر والحضرة، وان يُخْرج من الدار نبوية الطبالين، فَفُعِل ذلك»[60].

هذا، وبينما حضرت الموسيقى بكل ثقلها في النشاط الصوفي للقاسميين، ونشطت مجالس الذكر. غابت كراسي «علوم الظاهر» وحلقاتها إيمانا منهم ان العلم الحقيقي، هو العلم الباطن الذي يقع في النفوس من ثمرات التعبد، بشرط الإخلاص، ولو كان هذا التعبد تعاطي الموسيقى وانشاد الأمداح. وفي هذا الصدد يؤثر عن ولي شرقاوي انكر عليه أحد الفقهاء سلوكه قوله مجيبا إياه : «هذا علم الأذواق لا علم الأوراق»[61] لا بل دافعوا عن طريقتهم بحرارة ووجهوا دعوات متكررة لكبار شيوخ عصرهم والفقهاء منهم كي يلتحقوا بصفوفهم. على نحو ما فعله بوعبيد الشرقي نفسُه مخاطبا جاره الشيخ مبارك الزّعري قائلا :

يا الساكن في أرض البوادي   لا تتعـــــدش الموارد
اصحب هـداة الطريقـــا   تحصل لك الفوايـــد[62]

ويبدو أن الاختيار الذي تبناه القاسميون قد وجد له صدى واسعا، في البادية والمدينة، على حد سواء، ولاسيما لدى «الفئات الشعبية»، أو من اعتدنا أن نسميهم بالعوام، من حرفيين ومزارعين، ومن لا أرض ولا حرفة لهم... أولئك الذين يعانون من نفس الهموم ونفس الاحباطات، وفي حاجة ماسة إلى التخلص منها ولو لفترات قصيرة، كما هم في أشد الحاجة لمن يفهم معاناتهم ويعبر عنها بلسان حالهم، خصوصا إذا كان الحال به شدة، كما كان الأمر أيام القاسميين، وهو ما

---

(58) ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 2، ص 400.

(59) م. بن جعفر الكتاني، سلوة... **مصدر سابق**، ج 1، ص 189-190.

(60) **نفس المصدر**، ج 1، ص 374.

(61) ع. بن إبراهيم المراكشي، الاعلام... **مصدر سابق**، ج 9، ص 196-197.

(62) محمد المهدي الفاسي، **ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما الاتباع**، طبعة حجرية بفاس، 1308هـ، ص 128.

وجدوه فعلا في «الحضرة» القاسمية. وفي «موائدها»، وفي «كرامات» شيوخها، تماما كما وجده آخرون لدى طوائف أخرى مماثلة لها، قريبة من ديارهم.

بل يظهر لنا أن التيار القاسمي رسخ جذوره بقوة، وأصبح له حضور ضاهى به الحضورَ الناصري نفسَه، بل شكل للناصريين المنافس القوى على مستوى الجدال النظري ومستوى استقطاب الاتباع. وهو ما نجد له صدى في الكتابات الناصرية نفسها، من أهمها وأكثرها طرافة بجعلها خاتمة «المحاكمة الخيالية» التي أشرف أحد الناصريين على تنظيم فصولها سجلها لنا، صاحب «الدرة الجليلة في مناقب سيدي أحمد الخليفة» يعني في عز أيام الناصرية.

فقد أورد المؤلف بمناسبة ترجمته للشيخ عبد الله العتيقي أحد تلامذه أحمد الخليفة «رؤية» وقت غاب عنه فيه الرقيب، ورواها لمن دونها[63]، فقال :

«... كنت في عام خمس وخمسين ومائة وألف في ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، قال : كنت بالصف، والامام يقرأ القرآن على العادة المعروفة ليلة سبع وعشرين ثم أخذتني سنة «سبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم»، في وسط الصف حتى رأيت سريرا من ذهب منزلا من السماء بسلسلة من ذهب وفيه رجل جالس ومعه رجلان أحدهما في يمين السرير والآخر عن يساره. قال فسألت الرجل الذي على يمين السرير : من هذا الذي جلس على السرير ؟ فقال لي : هو سيدنا محمد ﷺ وأنا بلال ابن حمامة رضي الله عنه. قال : فتقدمت إليه فسلمت عليه، وقال لي ﷺ : مرحبا مرحبا مرحبا. قف هنا عند بلال، قال فوقفت عند بلال. قال : وأما الرجل الذي عن يسار السرير فلم يتكلم قط و لم أعرفه إلى الآن. قال ثم قال النبي ﷺ يا بلال نادي بالشرفاء أن يعرضوا علي ؟ قال، فإذا بخيمة عالية كبيرة جدا من حرير أخضر، مبنية ولها ركيزة واحدة من الذهب، ولها ثلاث حلقات من الفضة... ثم نادى بلال بأعلى صوته بالشرفاء، فإذا هم مجتمعون من كل جانب ومكان رجال ونساء وصبية فمن وصل منهم عند النبي ﷺ دخل الخيمة المذكورة... ثم قال ﷺ يا بلال ؟ ناد بحملة القرآن... فجازوا ودخلوا الخيمة... ثم قال ﷺ يا بلال ناد أهل الوسائل ؟ قال : فنادى بأعلى صوته يا أهل الوسائل ؟ قال : فإذا بقوم مقبلين لا يحصي عددهم إلا الله الذي خلقهم، قال : وتقدم بهم رجل ربع

(63) **الدرة الجليلة في مناقب سيدي أحمد الخليفة**، تحقيق ودراسة أحمد عمالك، رسالة جامعية مرقونة، بخزانة كلية الآداب، الرباط، ص 252-257.

القد مقْتصف بالشيب، وهو سيدي محمد بن ناصر رضي الله تعالى عنه، يعني أبا سيدي أحمد بن ناصر رضي الله عنهما، وهذا القوم فيهم رجال ونساء وصبيان فلما وصلوا بين يديه ﷺ، وتقدم ابن ناصر المذكور رضي الله عنه، فقال له ﷺ : مرحبا مرحبا مرحبا يا ابن ناصر، أنت وذريتك ومن دخل في حزبك ومن أجلك سواء صلى أو لم يصل... ثم دخلوا الخيمة... ثم بينما هم في ذلك فإذا بقوم لا يحصي عددهم إلا الله الذي خلقهم، وتقدم بهم رجل ولايزالون يمشون حتى وصلوا بين يديه ﷺ. فلما وصلوا سلموا وتقدم الرجل الذي تقدم بهم، فقال له النبي ﷺ : من أنت يا هذا ؟ فقال : أنا الذي يقال له الشيخ يعني السيد الشيخ التمسلا. فقال له النبي ﷺ لا أعرفك، فقال له : الله يا رسول الله، ان ابن ناصر ورد عليك بعسكره، فجاز، فقال له النبي ﷺ إن ابن ناصر أخذ علينا العهد والميثاق، وبقي في عهده حتى لقي ربه، وأنت لم نرك تأخذ علينا عهدا ولا ميثاقا، ثم قال : يا رسول الله إن كان في انصافا فعليه (بمعنى ذعيرة على المخالفة)، فقال النبي ﷺ ليس اليوم يوم انصاف، وإنما اليوم يوم تسراط (اسقراط للتمييز بين محسن ومسيء) نسرط الصافي من الخاوي على ظهر الدنيا، اذهب إلى يوم الحساب والعقاب يفعل الله بك بما شاء، أنت ولا غيرك، قال : فرجع في حينه. ثم بينما هم في ذلك نادى بقوم أقل من القوم الأول، وتقدم بهم رجل، فلما وصل سلم، فقال له النبي ﷺ، من أنت يا هذا ؟ فقال أنا الذي يقال له أحمد السوسي الذي بمراكش، فقال له ارجع لا أعرفك، قال فرجع من غير زيادة ولا نقصان. قال : ثم هم في ذلك فإذا بقوم آخرين لا يحصي عددهم إلا الله الذي خلقهم، فلما أشرفوا قال النبي ﷺ يا بلال ؟ قل للحنصالي أن يرجع من هناك، قال فرجع من هناك، قال فرجع، ثم قال النبي ﷺ يا فلان، قلت نعم يا رسول الله، فقال : لقد رأيت هذا كله من أوله إلى آخره فمن رأيت محبته فينا صافية وقاطعة فاخبره بهذا الخبر، وإلا فلا، ثم قال فرأيت السرير يصعد في السماء حتى غاب عن عيني، فانتبهت...» [**الدرة الجليلة**، 252-257].

إنه حلم، ولكن له مغزى، من مظاهرها، ولاشك، أن القاسمية شكلت ندا للناصريين مثلها مثل الحنصاليين، وهذا دليل وجودها، وتلك شهادة الخصوم.